استلهام التراث وصراع الهوية
في شعر مفدي زكريا

إعداد
د . حمدة بنت خلف العنـزي
أستاذ الأدب والنقد المساعد بكلية الآداب-
جامعة الملك فيصل

توطئة :

تعد منظومة التراث من أهم الشواهد الحقيقية على إثبات الهوية للشـــعوب والدفاع عن التاريخ الضارب في أعماق الأرض ، كما أنها دفاع عـــن مســـتقبل وحضارة وفكر لأي شعب ، فهي ذخيرة للمجتمع يجب عليه استغلالها واستثمارها من أجل إعادة بناء نفسه ، وتطوير واقعه ، وحل مشكلاته ، والقضاء على أسباب معوقاته .

والتراث كان وما زال حاضرًا حضورًا اتسم بالفاعلية لا بالسلبية ، لـــذلك لجأ له كثير من الشعراء يمتاحون منه جاعلين منه مخزونًا استراتيجيًا في ثقافتـــهم ، قابلاً للتوظيف متى دعت الحاجة إليه ، ومن ثم حرصوا على التواصل معه ؛ علـــهم يجدون من تجارب غيرهم ما يسهم في إثراء تجاربهم . وشاعرنا مفـــدي زكريـــا – موضوع البحث – هو أحد هؤلاء الشعراء العرب ، قد أدرك أن تراث أي شـــعب يلعب دورًا مهمًا في الحفاظ على هويته ، لذا حاول من خلال شعره تحصين الهوية الجزائرية ، ودعم مقوماتها ومرتكزاتها ، وترسيخ الانتماء إليها في قلوب الجزائريين، بعد أن استشعر مقولة : إن من لا ماضي له لا حاضر له ، مما حفـــزني أن أتنـــاول شعره من خلال هذه الدراسة التي عنونتها بـــ (**استلهام التراث وصراع الهويـــة في شعر مفدي زكريا**) .

وقبل الخوض في دراسة هذا الموضوع ، رأيت أهمية الوقوف علـــى ثنائيـــة التراث والهوية محاولة التعريف بهما ، على الرغم أنه لم يحدث اتفاق لدى الباحثين

على مدلول كل منهما ، وقد ارتضيت اختيار أكثرهما تداولاً واعتماده .

فالتراث عرف بأنه : ما خلفه السلف من آثار علمية وفنية وأدبية مما يعتبر نفيسًا بالنسبة لتقاليد العصر الحاضر وروحه [١] .

فهو بمعنى الموروث الثقافي والفكري والديني والأدبي والفني ، ولم يكن حاضرًا لا في خطاب أسلافنا ولا في حقل تفكيرهم ، وهذا يعني أن مفهوم التراث كما نتداوله اليوم إنما في إطاره المرجعي داخل الفكر العربي المعاصر ومفاهيمه الخاصة وليس خارجها [٢] .

وعرفه الدكتور حسن حنفي بأنه : كل ما وصل إلينا من الماضي داخل الحضارة السائدة [٣] .

أما الهوية فقد تناولتها الكثير من الدراسات التي أجمعت تقريبًا على ضبابية المفهوم ولكنها في أقرب تعريف لها [٤] : الذاتية والخصوصية وهي جماع القيم والمثل والمبادئ التي تشكل الأساس الراسخ للشخصية الفردية أو الجماعية ، وهوية الفرد هي عقيدته ولغته وثقافته وحضارته وتاريخه ، وكذلك هوية المجتمع فإنها الروح المعنوية والجوهر الأصيل للكيان الوطني [٥] .

ومن خلال التعريفين السابقين يتبين لنا عمق الصلة بين التراث والهوية ، فالتراث كان وما زال قيمة حية في وجدان العصر ، يمكن أن يؤثر فيه ويشكله ، والهوية ناتج هذا التشكيل وثمرته ، وقد أكد ذلك بعض الباحثين فقالوا : إن العودة إلى التراث هو بحث عن الهوية . وفي ذلك يقول هايدغر : « ليس استذكار التراث استرجاعًا لمبدأ تفسير نعلل به تفسير الوقائع التاريخية ، إنه بالأحرى استرجاع لهوياتنا من حيث أن ذلك التراث هو تراثنا المنسي » [٦] .

ومما لا شك فيه أن العودة إلى التراث بحثًا عن الهوية تدعمه مضامين متعددة، تظهر إلى السطح حين يتوجب إثبات الذات ، ولقد أحس الشعب الجزائري بحاجته إلى ذلك حين عمد الاستعمار الفرنسي إلى المراهنة على محو الهوية الجزائرية واقتلاع

دعائم الشخصية الوطنية ، وعمل على محاولة خلق هوية غريبة للشعب الجزائري ذات مفاهيم وقيم أخرى هجينة ، تختلط فيها مع قيمه ومثله ومبادئه الأصيلة ، فيتعذر عليه التمييز بينهما ، وتغيب مقومات شخصيته الأصلية ، فتذوب وتتفسخ معالم هويته ، ويختفي حضورها ولا يبقى منها سوى مقومات هشة تفتقد الأصالة التي تقف في وجه كل التحديات ، وتفرض وجودها ، ورأينا المستعمر في سبيل ذلك يرمي لتذويب الشعب الجزائري بعدة طرق ، كان منها محاولاته لتغيير الجنسية الرسمية ، وتغيير الأسماء العربية ، ومنع اللغة العربية تحدثًا وتعليمًا وغير ذلك [٧] .

وتبعًا لذلك عرف الوعي بالهوية في الجزائر شيئًا من الانتكاس والتقهقر ، خاصة أن أي هوية مع كونها راسخة إلا أنها عرضة للتغيير والتعديل تبعًا للعوامل التي تطرأ عليها وتغير منها ، لذا سعى الجزائريون إلى إثبات ذواتهم ، وقاوموا عملية التغريب والاستلاب تلك ، وخاضوا معركة مريرة في محاولة لإثبات هويتهم ، وتأكيد ارتباط حاضرهم بماضيهم وتراثهم ، وقال أحد محرري الصحف الجزائرية آنذاك تعبيرًا عن رأي الشارع الجزائري في رفضه المتعال للاندماج في حضارة المستعمر ، ورغبته في الحفاظ على هويته : « أنتم تحاولون أن تعطوا لأولادنا شعورًا مسبقًا عن حضارتكم التي اعتبرناها منذ زمن بعيد أدنى من حضارتنا » [٨].

ووعى مفدي زكريا هذه الحقيقة ، وأدرك أن الهوية الجزائرية في خطر ، وأن هناك محاولة لتفكيكها عبر اختراقها ، ورأى نفسه مدفوعًا بالغيرة والإحساس بالمسئولية للتأكيد على ضرورة الحفاظ على هوية هذا الشعب ، وأصالة هذا الوطن من خلال تأكيد ملامح الهوية الجزائرية الوطنية ، وصيرورتها التاريخية في محاولة لإعطاء الشعب الثقة بنفسه ؛ ليستمر في كفاحه .

وكان سلاح مفدي زكريا في معركته تلك إدراكه أهمية التواصل مع التراث واستحضاره في الحاضر المعاش ، معتمدًا على شاعرية عالية ، وكلمات معبرة [٩] حملها إيحاءاته ورسائله المبطنة ليظهر من خلالها قضية وطنه المستعمر ، وكانت جهوده في صراعة امتدادًا لجهود من سبقه أمثال ابن باديس ، والأمير عبد القادر

الجزائري ، وجماعة العلماء الذين عملوا على بعث جديد لهوية لم تمت ولكن علاها غبار التغريب الفرنسي ، فنرى ابن باديس في إحدى كتاباته يستنهض همة الجزائريين ليبعثها من غفوتها ، رافضًا محاولة المستعمر إفراغ الهوية الجزائرية من محتواها ، يقول : « إن كل محاولة لحمل الجزائريين على ترك جنسيتهم أو لغتهم أو دينهم أو تاريخهم أو شيء من مقوماتهم ، فهي محاولة فاشلة » (١٠) .

وعملت هذه الإرهاصات الأولى لابن باديس وغيره إلى شحذ همة الشاعر ؛ لتجعل منه روحًا جديدة تبعث على التحدي ، لذا عمد في شعره لكشف جرائم الاستعمار الفرنسي الذي رآه يتوسع ماديًا في بلده ، محاولاً المساس بالهوية بكل مقوماتها الدينية والثقافية والتاريخية والاجتماعية .

وهذه الرؤية التي امتلكها مفدي زكريا تولدت عن وعي بواقع الجزائر المؤلم، وقد صاحبها وعي مماثل بالتراث العربي والإسلامي ، وكان ذا فعالية عالية عنده ، إذ عمل هذا الوعي المزدوج إلى حيوية في نصه الشعري ، ولّدت لديه علاقة تبادلية عميقة ومؤثرة ، نلمسها بوضوح في ديوانه اللهب المقدس ، والذي كانت كلمات مفدي فيه تمتزج بالدم ، وتختلط برائحة السجون المظلمة التي قضى كثيرًا من أيامه فيها ، وكان ديوانه ذلك مشحونًا بكثير من الرموز التراثية الدينية والثقافية والتاريخية والاجتماعية .

ولا بد لي من الإشارة لأنني سبق وقرأت في عدد من المطارحات النقدية العربية تداول لمصطلح التناص ، والذي يعني العودة إلى التراث وتوظيفه لعمومية المعاني وشرعية تداولها ، ولكني آثرت أن أقدم ورقتي بعنوان : (استلهام التراث في شعر مفدي زكريا) مبتعدة عن مصطلح التناص ، وقبل تبيان سبب ذلك لا بد من التوقف أمام تعريف مصطلح التناص ، إذ يعني « أن يتضمن نص ما نصوصًا أو أفكارًا أخرى سابقة عليه عن طريق الاقتباس أو التضمين أو التلميح أو الإشارة إليه أو ما شابه ذلك المقروء الثقافي لدى الأديب ، بحيث تندمج هذه النصوص والأفكار

مع النص الأصلي ليشكل نصًا جديدًا متكاملاً » [١١] ، وارتأى بعض الباحثين تقسيم التناص إلى نوعين : تناص مباشر ، وفيه يعمد الأديب إلى الاتكاء على نص ما بلغته التي ورد فيها ، مثل : الآيات الكريمة والأحاديث والأشعار والقصص ، أما النوع الثاني : فهو تناص غير مباشر ، وفيه يعمد الأديب إلى اقتباس النص بروحه أو مضمونه عن طريق التلميح أو الرمز أو الإشارة [١٢] .

ورأى بعض الباحثين أن العلاقات التناصية تحدها ثلاثة أطر ، فإما أن تكون العلاقة التناصية قائمة على السكون السلبي المغلف بالجمود فيظل النص الجديد دون مستوى النص الأصلي ، أو تكون العلاقة قائمة على التسرب والامتصاص ، وفي هذه الحالة يكون النص القديم محوريًا ويكون في النص الجديد نوع من التحويل الذي تعاد من خلاله كتابة النص القديم دون تعدٍ على جوهره.

أما الإطار الثالث فهو القائم على العلاقات الحوارية التي تؤدي إلى محاكمة النص الأصلي والتعامل معه من منظور نقدي [١٣] .

ولعل محاولتي في أن أكون موضوعية في حكمي على تقنية توظيف التراث في شعر مفدي وعدم تحميل النص فوق ما يتحمل والانتقال به من واقعية البحث إلى مرحلة التأويل والتخمين هو ما دفعني لعنونة بحثي بـ (استلهام التراث) ؛ لأن الشاعر وإن حوى شعره تناصًا مباشرًا وغير مباشر إلا أنه لم يكن بالعمق الذي جعله يستخدم تقنيات فنية جديدةً تعامل النص بنظريات نقدية متداخلة معه بالحوار وإصدار الأحكام ، وإخضاعه لتجربته مع تكثيف للرمز والغموض الذي وسم القصيدة الحديثة ، فهو لم يتجاوز بتناصه الإطار الثاني (سابق الذكر) الذي يقوم على التشرب والامتصاص وذلك تبعًا للمرحلة الزمنية التي عاصرها الشاعر .

ولقد أشار الناقد الدكتور علي عشري زايد أن بعض الشعراء تجاوزوا مرحلة توثيق التراث والتعبير عنه ، فصلوا إلى التعبير به [١٤] ، وهذا ما كان مع شاعرنا الذي عبر بالتراث عن مأساة بلدة وصراع الهوية التي يعيشها شعب الجزائر ، فكان بذلك يستدعي نصوص التراث بأشكالها المتعددة على أساس وظيفي يجسد

التفاعل الخلاق بين الماضي والحاضر .

المتصفح لشعر مفدي زكريا لا بد أن يكشف أن الشاعر برع في العودة إلى التراث الذي كان ينبوعًا متفجرًا بالقيم العربية الناصعة النقية التي يعتنقها وحصنًا منيعًا يمنحه السكين والأمن في بلده المستعمر ، ولقد برز في شعره مختلف أنواع التراث الديني والثقافي والتاريخي والاجتماعي ، وسوف تبحث هذه الورقة في استلهام التراث الديني وصراع الهوية ، استلهام التراث الثقافي والأدبي وصراع الهوية ، وأخيرًا استلهام التراث التاريخي والاجتماعي وصراع الهوية ، وهذه المحاور كلها سوف أتعرض لها محاولة توضيح المحاولات التي كان يقوم بها الشاعر لتأصيل الهوية الجزائرية .

استلهام التراث الديني :

اعتبر مفدي زكريا أن الدفاع عن الهوية الجزائرية يستلزم العودة إلى التراث الديني والنهل منه ، وذلك بعد أن رأى الاستعمار الفرنسي يعمل على المساس بإسلام الجزائريين ، ولم يكن الشاعر ليجهل دور العامل الديني في تشكيل التفكير المناهض للاحتلال وشحذ الهمم للتصدي لأي محاولة لإقصائه ومحتوى ديوان (اللهب المقدس) فيه رصيد ديني ليس بهين استمده الشاعر من القرآن الكريم خاصة ، والتراث الديني عامة ، وكان توظيفه لآي الذكر الحكيم كثيرًا ، وذلك لمعرفته ما يحمله القرآن من ثقل التأثير والفاعلية عند المسلمين ، حتى يصل به للهدف المنشود ، وهو الحفاظ على الهوية الدينية مقترنة بتفعيل الحس الثوري ، حيث : « أصبحت لغة القرآن كما يذكر محمد ناصر تداخل لغته الشعرية تعبيرًا وتصويرًا ، مما جعل هذا التوظيف طابعًا يكاد يتميز به شعر مفدي زكريا ويدل عليه » [١٥] .

وقد تنوعت طرق عودة مفدي إلى القرآن ، فهو حينًا يقتبس بشكل كامل وكلي فتتداخل صياغته الشعرية مع آيات القرآن الكريم ، وأحيانًا أخرى يقتبس جزء من النص القرآن أو يشير إلى قصة قرآنية مع محاولة ربط كل ما مضى بواقعه

الراهن ، ولعل من أكثر السور القرآنية التي وقف أمامها مفدي زكريا مقتبسًا أو مضمنًا أو مشيرًا سورة الزلزلة ، التي وردت عنده في أكثر من موضع ، ولعل ذلك يرجع لكون الزلزال مظهر كوني يغير خارطة الأرض ، وهذا ما يريده هو يريد مظهر آخر مظهر إنساني هو مظهر الثورة وروح الجهاد ، التي تحدث انقلابًا للأرض في لحظات خاطفة كما هو الزلزال ، فينقلها إلى حال مغايرة .

يقول [١٦] :

هو الإثم زلزل زلزالها ... فزلزلت الأرض زلزالها

وحملها الناس أثقالهم ... فأخرجت الأرض أثقالها

وقال ابن آدم في جمعة ... يسائلها ساخرًا ما لها

فلا تسألوا الأرض عن رجة ... تحاكي الجحيم وأهوالها

ويقول أيضًا [١٧] :

أجهنم هذي التي أفواهها ... من كل فج نقمة تتفجر

أم أرض ربك زلزلت زلزالها ... لما طغى في أرضه المستعمر

فهو يرى في أرضه جهنم مستعرة في رمزية إلى تفجر أوضاعها واستعارها حينًا ، ويرى فيها زلزالاً متفجرًا بروح الوطنية والإباء التي ترفض الخنوع والانكسار .

كما أنه يتناول حال الخونة والعملاء من أبناء جلدته الذين تنكروا لأرضهم في قوله [١٨] :

ما بالها بعد الدلال تنكرت ... لبلادها ومن الذي أوحى لها

فهل الجزائر أفرغت فضلاتها ... وهل الجزائر أخرجت أثقالها

وتكالب السفهاء من غلمانها ... متمردين ، فزلزلت زلزالها

فهذه العصابة الحقيرة زلزلت بفعلتها النكراء قلوب الجزائريين المخلصين ،

وهو منهم ، لذا يرجو أن تخرج الجزائر أثقالها وتتزلزل أرضها ، فتقلب على الخونة ظهر المحبة تمردًا على ما صنعوه بها .

أما ليلة القدر فهي تحمل رمزية خاصة للمسلمين ، إذ رمزت للخلاص المنتظر فمبدؤها سلام وختامها سلام ، لذا لا ينفك مفدي زكريا يذكرها في شعره؛ لأنها رمزٌ للسلام يأمله وينتظره ويتوقعه [١٩] :

سلو مهجة الأقدار هل جرسها دقا وهل خاطر الظلماء عن سرها انشقا

وهل ليلة القدر التي طال عمرها تنفس عن فجرها يصدع الأفقا

وهل كف هذا الدهر عن غلوائه وانصفنا هذا الزمان الذي عقا

ورمزت في شعره أيضًا إلى خلاص الروح المجاهدة ورحيلها بسلام تحفها الملائكة من كل حدب وصوب ، يقول [٢٠] :

وتسامى كالروح في ليلة القدر سلامًا يشع في الكون عيدًا

فهذا الشهيد موكبه المهيب نحو السماء يماثل سيدنا جبريل في المتزلة قد خلصت روحه في هذه الليلة المباركة .

ورمز الخلاص نراه مقترنًا بليلة القدر في موضع آخر من شعره [٢١] :

وهل سمع المجيب نداء شعب فكانت ليلة القدر الجوابا

وهو دائمًا ما ينوع في سياقاته ودلالات استخدامه لآي الذكر الحكيم ، فهو مثلما رغب في التغيير والخلاص رغب أيضًا في أن يكون صوت ثورة شعبه صوتًا جهوريًا ، لذلك وظّف قوله تعالى : { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ } [٢٢] ، وقوله تعالى : { فَا صْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ = ٩٤ } [٢٣] في سياق واحد ، حاملاً دلالة واحدة هي إعلان الثورة الجزائرية لترسيخ قيمة الجهاد ، حتى يخرج من يكون قدوة يتبعه مقتدي يؤكد هذه القيمة ويرسخها ومن مثل ذلك قوله[٢٤] :

واقرأ كتابك للأنام مفصلاً تقرأ به الدنيا الحديث الأورعا

واصدع بثورتك الزمان وأهله واقرع بدولتك الورى والمجمعا

وهو لا يلجأ للرمز في كل شعره ، وإذا استخدمه يكون مباشرًا في توظيفه كما في قوله [٢٥] :

وكم أمم غيرت ما بها فغيرت يا رب أحوالها

عساها تثوب إلى رشدها فأولى لها ثم أولى لها

فالشاعر هنا يدعو أمة امتهنت الخيانة وغيرت من مبادئها بأن تثوب إلى رشدها وإلا فإن العقاب ، ومر الوعيد ينتظرها ، وهذا ما نلمسه في قوله تعالى : { أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى = ٣٤ ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى = ٣٥ } [٢٦] ، الذي يحمل معنى الوعيد والتهديد لمن كفر وفسق من بني البشر ، وهنا تبرز محاولة الشاعر تأكيد الهوية الدينية .

وفي هدوء شعري يخالطه فرح النصر بعد أن أعز الله جزائره باستقلال ، أكد سيادة الوطن وانتصار الهوية بكل أبعادها وعلى رأسها هويته الدينية ، يقول [٢٧] :

وكم كنت بين (الكاف والنون) ومذ قلتها – يا رب – جنبتني

ولباك شعب كاد يفقد ظنه بوعدك لولا أنه يحفظ الذكرا

ويقرأ في التنزيل عند صلاته بأنك بعد العُسر تغمره يسرا

فشاعرنا تجتاحه الحيرة والضياع في وطن سليب ، حتى أراد الله أن يكون الحق ، ويتحقق الوعد الإلهي لشعب يائس لم يصبره سوى إيمانه بآيات الذكر الحكيم ، وبقوله تعالى : { إِنَّمَا أَمْرُهُو إِذَا أَرَادَ شَيْئا أَن يَقُولَ لَهُو كُن فَيَكُونُ = ٨٢ } [٢٨] ، ومعرفته أن العسر لا بد أن يتبعه يسر ، قال تعالى : {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا = ٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا = ٦ } [٢٩] .

وكذلك كان استلهام مفدي للحديث النبوي الشريف في أشعاره ، ذا

شكل فعال مظهرًا براعة عالية لديه ، لاستحضار النص النبوي وتوظيفه وصهره في السياق الشعري ؛ ليضفي بعدًا معنويًا استشعره الشاعر بإيمانه من قبل ، ويستشعره المتلقي من بعد ، فيحدث تواصلاً إيحائيًا للصور والتراكيب .

فلم يخف على مفدي مدى تأثير الحديث الشريف على المتلقي للنص الأدبي ؛ لأنه صادر من أكمل الخلق سيدنا محمد الذي لا ينطق عن الهوى ، كما أنه وعى أن شخصية الرسول الكريم كان لها دلالة على الثورة والنضال عند المسلمين ؛ لأنه كان الثائر المتمرد على الظلم ، وحامل لواء النضال في سبيل رسالته ، وبالعودة إلى ديوان الشاعر نسجل حضورًا بارزًا لنص الحديث النبوي اقتباسًا وتضمينًا وترميزًا وإشارة ، ومن ذلك قوله مخاطبًا المستعمر [٣٠] :

وعفنا من رجالك يا فرنسا كذابًا لم نطق معنى اصطبارًا

ومن يلدغ فإنا قد لدغنا خداعًا من جحوركم مرارًا

فهنا تمكن مفدي زكريا من تضمين الحديث الشريف : (**لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين**) [٣١] في نصه الشعري بشكل بارع ، حاول من خلاله تفعيل الحس الثوري وتأكيد الهوية الجزائرية المسلمة ، ورفض الاستعمار وخداعه وتضليله، مستندًا لفعالية تأثير الحديث النبوي على المتلقي الجزائري المسلم .

ولنفس الغاية نراه يؤكد على روح الوحدة الجزائرية مستلهمًا الحديث الشريف : (**عليك بالجماعة ، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية**) [٣٢] لتعزيز هذا المعنى ، وتأكيد الهوية الدينية التي لا ترضى إلا بوحدة الدين والدم ، يقول [٣٣] :

محمد أبقى لنا عبرة من الذئب والغنم القاصية

أما استحضار الشخصيات الدينية مثل الرسول والصحابة والملائكة وغيرهم وما يتصل بهم من القصص القرآني ، ومحاولة استلهام الأحداث الدينية الأبرز في

الإسلام ، فهي طرق أخرى اتبعها الشاعر لتوظيف التراث الديني لخدمة قضيته الأساسية في الحفاظ على الهوية الدينية لدى الجزائريين ، وتتضح فيه محاولة الترميز الهادفة لربط الحاضر بالماضي من واقع تجربة الشاعر الذي حمل على عاتقه قضية أرضه ، وتنبع أهمية استعادة تراث هذه الشخصيات وقصصها من كونها شكلت مخزونًا دلاليًا عند المتلقين ، فهي حاضرة في وجدانهم منذ قرون حضورًا ارتبط بالقداسة والالتزام ، لذلك يتقاطع خطاب مفدي الشعري حين يتناولهم مع المخزون الدلالي لهذه الشخصيات ، فنراه ينجح إلى حد ما في توظيفها داخل النص الشعري بما يمنحها الديمومة والخلود ، وبالتالي يمنحها القبول والقناعة لدى القارئ.

ولعل أبرز الشخصيات الدينية التي أخذت نصيبًا من الحضور في شعر مفدي زكريا كانت شخصية نبي الله موسى ، وعلل لذلك أحد الباحثين فقال : « إن ذلك عائد إلى شخصية سيدنا موسى التي حظيت بما لم تحظ به شخصية أخرى في القصص القرآني ، حيث تكررت القصة التي تعالج مواقف سيدنا موسى في أكثر من ثلاثين موضعًا ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية قد يعود هذا الاختيار إلى طبيعة مزاج مفدي زكريا نفسه ، فطبيعته الثورية المؤمنة باستخدام القوة وسيلة لتغيير الأوضاع وقلبها ، ورفض أنصاف الحلول ، والحصول على الحقوق بالطرق الدبلوماسية ، وتمرسه على النضال والمواجهة في صفوف حزب الشعب منذ الثلاثيات ، هذه الطبيعة المقاومة المناضلة التي اعتنقها منذ يفاعته ، ومن أجلها عذب وسجن ونفي ولوحق ، وهي التي دفعته إلى الإعجاب بالمواقف القوية التي تطيح بالجبروت والطغيان ، وقد تمثل له ذلك كله في قصة سيدنا موسى مع فرعون الطاغية » [٣٤] .

وما سبق يبين أن شخصية موسى تحمل في نفس مفدي دلالة القوة القادرة على الوقوف في وجه الظلم ، وهذا ما أراد الشاعر أن يكون عليه هو وشعبه حتى يقفوا في وجه المستعمر الظالم ، بالإضافة لذلك فإن مفدي حين توكأ على شخصية موسى كان ينتظر معجزة آلهية تخلص بلدة من استعمار جثم على أرضها

منذ عشرات السنين ، فربما يكون في لحظة ما قد انتابه نوع من الإحساس بالضعف واليأس بأن الثورة التي ينتظرها قد لا تتحقق ، وإن تحققت فسيكون مصيرها القضاء عليها كما حل بسابقاتها ، لذلك كان ينتظر المعجزة التي تنقذ بلده من براثن فرنسا كما أنقذ الله بني إسرائيل مع سيدنا موسى بمعجزات متعددة أشار لها في شعره مثل قوله [٣٥] :

ما بين كاف ونون قالها رجل إرادة الله تجري باسمها القلم

ألقى عصاه بها موسى مروعة راحت لما بث إسماعيل تلتقم

شق الخضم وألقى في قرارته من آل فرعون من جاروا ومن

فهو هنا ينتظر تلك الإرادة الإلهية التي تحول ليل الجزائر المظلم إلى نهار منير بمعجزة كمعجزات سيدنا موسى ، وهو يرى أن قوة الجزائريين مستمدة من قوة موروثة تظهر برهان الحق ليعود لأهله ، يقول [٣٦] :

ورثنا عصا موسى فجدد صنعها حجانًا فراحت تلقف النار لا

وكلم موسى الله في الطور خفية وفي الأطلس الجبار كلمنا جهرا

وبالمثل كان سيدنا عيسى رمزًا للمعجزات الخارقة التي انتظرها الشاعر لتنقذ الجزائر ، وتفك قيدها ، كما أنه رأى فيه رمزًا للخلاص والحرية ، علمًا أن معظم ملامح سيدنا المسيح مستمدة من التراث المسيحي [٣٧] ، ومنها ملامح الصلب ، والحياة من خلال الموت ، والفداء ، أما مفدي زكريا فانتظر معجزة إلهية تنطق الصخر من هول ما يرى كما أنطق سيدنا عيسى الموتى [٣٨] :

وأنطق عيسى الإنس بعد وفاتهم فألهمنا في الحرب أن تُنطق الصخرا

وهو يضفي على قصيدة له صوّرت استشهاد أحد ثوار الجزائر بعدًا رمزيًا دينيًا قويًا حين يربط بينه وبين المسيح عيسى حين يرفع إلى السماء ، فكأن هذا الشهيد الذي أمامه المسيح الذي يرمز للموت في سبيل قضيته ، وللخلاص والحرية،

ويرمز لكل ثائر على الظلم والفساد يموت من أجل دعوته متحملاً الآلام والعذابات فداءً لفكرة يعتنقها ، وإيمانًا بحياة أخرى بعد الموت تنتظره في الأعلى ، يقول [٣٩] :

قام يختال كالمسيح وئيدًا يتهادى نشوان يتلو النشيدا

حالمًا كالكليم كلمه المجد فشد الحبال يبغي الصعودا

وهو حين يتحدث عن جمال بلده الجزائر يعود إلى التراث مستلهمًا صورة السيدة العذراء وهي تعيش أسوأ أوقاتها وقت المخاض وآلامه الجسدية الشديدة بالإضافة إلى تلك الآلام النفسية التي تحاصرها مخافة تساؤلات قومها ولكن إرادة الله تخلصها من كل ذلك الألم إذ يأتيها الوحي بأن تهز نخلة كانت تستظل بها لتسقط عليها رطبًا جنيًا تأكله فيستريح جسدها ، وتهدأ نفسها ، وكذلك بلده الجميل يعيش في ظل الاستعمار أسوأ ظروفه تحاصره الآلام من كل ناحية ولن ينقذه إلا ثورة تهز الأرض بنخلها وشجرها ، فتساقط خيرات تلك البلد على من هم أولى بها من أهلها [٤٠] :

وهزت مريم العذرا نخيلاً فأسقطت الفلوذج والرضابا

والصورة هنا فيها تداعي حر في تصويره لسقوط خيرات بلده الحلوة كالفالوذج ، فكأنها الرطب الذي أسقط الله على مريم العذراء ليخفف عنها آلامها.

أما سيدنا محمد فقد مثل للشعراء رمزًا شاملاً للإنسان العربي المعاصر ، سواء في انتصاره أو في عذابه [٤١] ، وكذلك كان لدى مفدي زكريا حيث مثل حضور سيدنا محمد في شعره حضور الإنسان الثائر المتمرد على البغي والظلم ، وحضور الإنسان الذي نذر نفسه لقضيته ، فحمل لواء النضال في سبيلها لإحقاق العدل ، والخير والذي رأى فيه مفدي قدوة للإنسان الجزائري ، يقول [٤٢] :

وحدثنا عن يوم بدر محمد فقمنا نضاهي في جزائرنا بدرا

وهو يمثل أيضًا عنده صورة الماضي المزدهر المتألق في مقابل الحاضر المنطفئ ، والذي يود الشاعر لو يعدد حيًا كما كان يقول [٤٣] :

خلقنا لهذا الورى سادة ونجم الهدى عندنا أشرق

بلادي يمينًا مقدسة سترعى عهدك طول البقا

وهو أيضًا عنده يرمز للإنسان العربي الثائر الذي تنتظره الأمة ليكون مخلصها من آلامها وهوانها ، وهو نفس الرمزية التي تستخدم عند ذكر سيدنا عيسى ، لذلك عمد الشاعر إلى توظيفهما في موقف موحد ، ولكن في سياق رمزي له دلالة مختلفة ، تشير إلى فكرة التسامح الديني والتقارب بين الديانتين المسيحية والإسلام واتفاقهما في بعض القيم ، يقول [٤٤] :

ونحترم الكنيسة في حمانا ونحترم الصوامع والقبابا

وكان محمد نسبًا لعيسى وكان الحق بينهما انتسابا

أما سيدنا يوسف الذي يرمز للإنسان القادر على تأويل ما تحياه الشعوب من ويلات في الوقت الحاضر ، فقد وظّفه مفدي في دلالة مختلفة تشير للإنصاف بعد الظلم والتمكين في الأرض ، واستنادًا إلى قوله تعالى : { وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ = ٥٦ } [٤٥] ، والشاعر وظّف المعنى هنا كتحية من الجزائر الثائرة إلى المغرب المستقلة وعلى رأسها جلالة الملك محمد الخامس الذي رأى فيه صورة أخرى لسيدنا يوسف الذي أنصف بعد ظلم ، وحكم بعد سجن وعذاب ، يقول [٤٦] :

فانزل كريمًا في بلاد حرة أخذ الزمان لشعبها بالثأر

وأهبط من الملكوت أكرم هابط وانشر قميص أبيك للأبصار

والصورة هنا مبطنة رمزت إلى ظهور الحق وعودة النور ، وضياء الحرية

للمغرب العربي ، كما عاد نور عيني سيدنا يعقوب له بعد أن نشر يوسف قميصه له ، ولعل الشاعر أراد في ذكر ما سبق أن يعطي الجزائر أو الجزائريين أملاً في حرية قريبة ومرجوة .

أما سيدنا سليمان فقد ورد ذكره عند مفدي زكريا في محاولة لتأكيد زيف قوة الاستعمار أمام الهوية الوطنية الحقيقية ، وقد وظّف الشاعر شخصية سليمان بطريقة ذات فاعلية ورمزية عالية من خلال حادثة وفاته التي أخفيت عن الجن ؛ ليستمر في العمل كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم (٤٧) ، يقول الشاعر (٤٨):

ورُعنا الليالي الجُبليات فأجهضت ولم نك نخشى من عجائبها شرا

وما دلنا عن موت من ظن أنه سليمان منسأة على وهمها خرا (٤٩)

فهذا المشهد استعاده مفدي وأسقطه على موقف شارل ديغول من الثورة الجزائرية الذي كان دائمًا ما يحمل عصا يتوكأ عليه ، وقد رمز لتلك العصا بالعظمة الزائفة التي ما لبثت أن كسرتها يد الثورة .

أما الملائكة فشخصيات مقدسة ، استلهم الشاعر وجودها في التراث الديني ليعبر من خلالها معتمدًا على إيمان كامل بوجودها المادي حتى وإن خلقت من نور، وأكثر الملائكة دورانًا في شعره سيدنا جبريل ، ويذكره أحيانًا باسمه ، وأحيانًا بواجبه الإلهي بإبلاغ الوحي للرسل ، وهو رمز للقوة اللا مرئية التي تصل الإنسان بالسماء ، يقول متحدثًا عن أحد شهداء الثورة الجزائرية (٥٠) واصفًا انتقاله إلى رحاب الخلد عند مليك مقتدر (٥١) :

لفه جبرائيل تحت جناحيه إلى المنتهى رضيًا شهيدًا

وسرى في فهم الزمان زبانا مثلاً في فم الزمان شرودًا

ونلحظ أن الشهيد حمله في رحلته الأخيرة إلى المنتهى سيدنا جبريل مخالفًا للمألوف والذي ينص على أن عزرائيل هو المتكفل بقبض الأرواح ، فكأنه في مرافقة جبريل قد استحق مكانًا لم يصله من قبل إلا الأنبياء والرسل ، رامزًا بذلك

إلى قدسية الشهيد وعلو مترلته عند الله ، وحاثًا في الوقت ذاته الثوار على طلب الشهادة لنيل مكانة عظمى .

أما عزرائيل فقد رمز في التراث العربي لقوى الفناء والموت تلك القوة التي تقضي على الإنسان ، وتهدد راحته ، وتنهي آماله وأحلامه ، وهو عند الشاعر كان رمزًا لقوة الفناء التي تهدد المستعمر حين يفكر في اغتصاب خيرات هذا البلد ، فكأنه يتخذ دلالة مغايرة تخدم هذا الشعب المستعمر وهي دلالة الحماية والذب عن الضعفاء ، يقول [٥٢] :

الله فجـــر خلـــده بزماننـــا وأقام عزرائيل يحمـــي المنبعـــا [٥٣]

أما خازن النار (مالك) فهو رمز للعذاب المقيم الذي لا يبارحه المرء أبدًا، إذ يقف هو وزبانيته حارسًا لباب جهنم ، فلا فكاك من سطوقم ، وقد وظّفه مفدي زكريا للمعنى ذاته ، رابطًا بين زبانية سجن بربروس من المستعمرين وبين زبانية العذاب الإلهي في دلالة على عمق الألم وشدة العذاب الذي يتعرض له، يقول [٥٤] :

سيان عنـــدي مفتـــوح ومنغلـــق يا سجن بابك أم شدت به الحلـــق

أم السياط بهـــا الجـــلاد يلـــهيني أم خازن النار يكـــويني فأصـــطفق

وفي مقابل هذه الشخصيات الدينية المقدسة نجد الشاعر يوظف شخصيات أخرى منبوذة ، وعلى رأسها نرى الشيطان الذي تمرد على إرادة الله فحلت عليه اللعنة ، لذا نراه في محاولة لتأصيل الهوية الدينية يهدد كل من خرج عن ملة الإسلام بأن مصيره سيكون كمصير إبليس الذي طرد من رحمة الله ما زال ملعونًا إلى الآن، يرجمه ملايين المسلمين لتمرده على الله [٥٥] :

رضـــينا بالإســـلام تاجـــًا كفـــى الجهـــال تدنيسًـــا

فكـــل مـــن يبغـــي اعوجاجـــًا رجمنـــــاه كإبليسًـــــا

ومن الصور التي لجأ لها مفدي زكريا لاستعادة التراث وإعادة النبض لـــه ، توظيف الشخصيات الدينية البشرية في محاولة متجددة لـــربط العنصـــر البشـــري اللاحق برموز النص البشري السابق ، وما يحمل وجوده فيه مـــن أبعـــاد فكريـــة واجتماعية وحتى سياسية ، ولعل الصحابة هم من أهم تلك الشخصيات ورمزيتهم تختلف باختلاف كل شخصية وظروفها ، ولكن مفدي هنا وظفهم بشكل جماعي حين قال مادحًا ثوار المغرب العربي [٥٦] :

وصحابة مثـــل الصـــحابة نجـــدة وكتائـــب ككتائـــب الأنصـــار

فالشاعر وظّف الحضور القوي المرتبط بالقداسة والاحترام للصحابة عامة ، والأنصار خاصة ، الذي منحهم قبولاً لدى المتلقي ، فجعل الثوار في صحبتهم لملك البلاد كصحابة سيدنا محمد في تلبيتهم نداءه وطاعتهم أمره ، ورمز أيضًا لكتائبهم في نصرتها للثورة الحق والعدل بكتائب الأنصار التي ناصرت الدعوة الإســـلامية في بدايات أمرها ؛ لإرساء دين الحق دين الإسلام .

وفي صورة رمزية مستحدثة ذكر الشاعر سيدنا بلال بن رباح والذي كـــان مؤذن رسول الله رابطًا بين لون بشرته الأسود وبـــين لـــون البتـــرول الأســـود ، يقول [٥٧] :

وفجـــر بئـــر مســـعود بـــلال فـــأذن واســـتمال لـــه الرقابـــا

فالشاعر هنا حين ذكر بلال بن رباح كان يرمي إلى توظيف دلالته المرتبطة بعمله كمؤذن ، والأذان إعلام وإعلان ، فهاهو الذهب الأسود يعلن للعالم أجمع ما كان المستعمر ينوي أن يغتصبه من خيرات الجزائر ومن نصيب شعبها كما أعلـــن بلال الحبشي للعالم أجمع عن دين جديد كانت قريش تحاول أن تأده وتقضي عليه.

أما هند بنت عتبة التي كان لها ثأرًا عند حمزة بن عبد المطلب ، فقد وظّـــف الشاعر موقفها لخدمة فكرته حين قال [٥٨] :

ومن كانت الأكباد قربـــان ثـــأرة فهيهات دون النصر نيرانـــه تخبـــو

فالشعب الثائر لن يرضى سوى بالانتقام الذي يبقر بطن المستعمر ويلوك كبده ثأرًا وانتقامًا حتى يصل للنصر الحقيقي وذلك مشابهة لموقف هند حين كان قربان ثأرها كبد حمزة و لم تهدأ إلا بعد أن أشفت غليلها بنصر زائف .

أما المخزون اللفظي الديني لدى مفدي زكريا فقد استعمله كرموز دينية تتحرك داخل سياق محدد ، مولده للمعاني في محاولة لربط الجزائر بأصولها الدينية ، وتأصيل الهوية الإسلامية ، وألفاظه الدينية في ديوانه اللهب المقدس كثيرة وتتقاطع بعضها مع ألفاظ مستوحاة من الديانات السابقة مثل : قربان ، إيمان ، كفر ، صلاة ، جهنم ، جنة ، وغيرها ، لذا آثرت الإشارة إلى الألفاظ الإسلامية الخالصة التي وردت في شعره من مثل قوله [٥٩] :

وتعالى مثل المؤذن يتلو كلمات الهدى ويدعو الرقودا

وقوله [٦٠] :

اليوم يوم البعث في أطوائه لغد البلاد عجائب الأطوار

وإذا أتى يوم الحساب فلا تنم واقرأ حساب الماكر الغدار

وقوله [٦١] :

إن كان عيد النحر عيد ضحية عيد الضحايا حق كل نهار

وقوله [٦٢] :

ذروا العواطف فالرشاش يجهلها وسجدة السهو لا تحيي ضحايانا

وقوله [٦٣] :

ورباط أصبح كالبقيع قداسة متيمنًا بمناسك الزوار

وهذه الألفاظ تحمل كل واحدة منها دلالة رمزية معينة في السياق الذي وردت فيه ، وهي لقدسيتها ستلقى قبولاً لدى المتلقي وتأثرًا بالفكرة التي أرادها الشاعر .

استلهام التراث الأدبي والثقافي العربي :

ومن الأساليب التي لجأ إليها مفدي زكريا في صراعه لتأصيل الهوية الجزائرية والحفاظ عليها ، استلهام التراث الأدبي والثقافي العربي ، وتوظيفه للحفاظ على هوية الجزائر الثقافية ، إذ حاول المستعمر الفرنسي طمس تلك الهوية الثقافية وذلك بذريعة أن ثقافة الجزائر لم تكن مواكبة في شكلها ومضمونها للثقافة العالمية ، وبذلك رحب الانفتاح على ثقافات مغايرة ، وكان المستعمر يهدف من ذلك إلى صرف الجزائريين إلى الالتفات إلى مكونات ثقافتهم المختلفة في اللغة والشعر والأدب والعلوم المختلفة والمحافظة عليها ، والعمل على خلق هوية غريبة ثقافيًا ذات مفاهيم وقيم أخرى تختلط فيها الثقافات والعلوم .

وقد لجأ الشاعر في صراعه لوسائل عدة كان من أهمها إبراز أهمية اللغة العربية باعتبارها لسان الشعب العربي الجزائري ، وعنصرًا من أهم عناصر ذاتيته وركنًا من أقوى أركان شخصيته التي يحرص الاستعمار على أن يلغيها ، لذا كان من صلب استراتيجيته الإجهاز عليها ؛ لأنه رأى فيها مؤشرًا دالاً على عمق ارتباط الإنسان الجزائري بهويته وأرضه ، ومن أجل ذلك دخل المستعمر في حروب ضروس أشار لها بعض الباحثين حين قال : « نعتقد اعتقادًا جازمًا أن اللغة العربية ستخرج منتصرة من هذه الحرب مرعية الجانب ، موفورة المادة ، غضة الشباب»(٦٤) .

وبالفعل هذا ما كان إذا انتصرت العربية على لسان الجزائريين ؛ لأنها لم تكن بالنسبة لهم مجرد وسيلة تواصل وتخاطب ، بل رأوا فيها رمزًا لا يمكن المساس به ، فهي وسيلتهم للعبادة وفهم القرآن الكريم والحديث الشريف ، وهي وعاء التراث والحضارة ، ورمز استقلال بلدهم الفكري والثقافي ، وهي في كل ذلك تعبير عن الكرامة الجزائرية ورمز لها ، لذا نرى حضورًا طاغيًا لها في ديوان الثورة الجزائرية (اللهب المقدس) محسنًا الشاعر في توظيفها واستيحاء حضورها في التراث لخدمة قضيته في تأكيد وجود الهوية الوطنية الجزائرية ، يقول مفدي

زكريا[٦٥] :

سل الفصحى وقل للضـــاد رفقًـــا لسان الحال أفصـــح منـــك نُطقًـــا

فالشاعر رأى أن الأفواه قد تكممت عن قول الحق وخرست ، لذا يدعوها للتعبير عن آلامها وأحزانها بلغة فصيحة معبرة ترفق بمستمعها ، حتى وإن كان واقع الحال يعبر عن نفسه . . . ولكن تعبيرها هي سيكون له بعدًا آخر يستشـــعر مـــن خلاله السامع تمسك هذا الشعب بهويته العربية والثقافية .

ولغة الضاد عند الشاعر لغة الخلود لمجد الجزائر ، تتوحد تحت رايتها كمـــا وحدتها الجراح التي تتنازعها ، يقول [٦٦] :

الضاد في الأجيال خلـــد مجـــدها والجرح وحـــد في هواهـــا المترعـــا

وفي نفس المعنى يقول [٦٧] :

نحن في هـــذه الجزائـــر إخـــوان جراحاتنـــــا الثخينـــــة حمـــــرا

لحمة الضاد والعروبـــة والتـــاريخ والـــــدين آي ربـــــك كـــــبرى

فهو هنا يحدد أبرز رموز الهوية الجزائرية المسلمة والعربية التي حاول المستعمر القضاء عليها ، فهم إخوة وحدتهم الجراح ، ولحمت بينهم لغة وعروبة وديـــن في تأصيل مقنن ومحدد لأبرز وأهم تلك الرموز . ومن الطرق التي لجأ إليها الشـــاعر لتأصيل الهوية الثقافية الجزائرية من ناحية ، وربط الجزائريين بالماضي العـــربي الأدبي من ناحية أخرى حتى يستشعروه ويبقوا على صلة وثيقة به ، العودة إلى المـــوروث الأدبي من خلال استلهام شخصيات شعرائه أو تضمين شعره شيئًا من شـــعرهم ، خاصة وأن الشعراء أكثر طواعية من غيرهم على استيعاب أبعاد التجارب المختلفة، وهذا ما توصل له مفدي زكريا ، لذا راعى عند استلهامه لشخصـــيات الشـــعراء القدماء والمحدثين على السواء ، ما ترمز له هذه الشخصية وما ارتبطت به من قضايا سياسية أو فكرية أو اجتماعية أو حضارية ، فأصبحت لها دلالة تتصل بهـــا عنـــد

ذكرها ، وبناءً على ذلك كان مفدي يتأول بعض جوانب حياة الشخصية التراثية لتصلح عنوانًا على القضية التي يريد أن يحملها عليها تأولاً إيجابيًا ، يحاول من خلاله التأثير على المتلقي .

ويعد عمرو بن كلثوم من الشعراء الذين كان لتجربتهم تأثير لدى مفدي زكريا ، إذ وجد في ملامح تجربته ما يحمل شيئًا من ملامح تجربته الثورية ، فكلاهما موتور يسعى وراء ثأره ، وهذه هي البؤرة التي يلتقي فيها الشاعرين ، لكن عمرو بن كلثوم الذي رمز في الأدب العربي للشخصية الثائرة التي تأبى المهانة ، وترفض الذل ، عمدت إلى أخذ حقها بيدها ، أما شاعرنا فما زالت الحرية حلمًا يتراقص أمام عينيه ولن يحققه إلا قوة شعب جبار كما هم قوم عمرو بن كلثوم الذين قال مفتخرًا بهم [٦٨] :

إذا بلغ الفطام لنا صبي تخر له الجبابر ساجدينا

وعلى نفس المعنى نرى مفدي زكريا يحوّر النص بما يتفق ورؤيته ، مصورًا السلبية التي يعيشها أبناء الجزائر سادة وعامة أمام عصابة الاستعمار وشرورها [٦٩]:

ما للعصابة في الجزائر ما لها ما للجبابر ساجدين حيالها

وتأثر الشاعر بأبيات معلقة عمرو بن كلثوم الثائرة التي تعكس روح التحدي، والتي يقترن فيها الفخر بالذات بالفخر بالقبيلة [٧٠] :

بأنا المطعون إذا قدرنا وأنا المهلكون إذا ابتلينا

وأنا المانعون لما أردنا وأنا النازلون بحيث شينا

ومفدي بنفس النغمة الخطابية الرنانة العالية التي تناسب غرض القصيدة ، وعلى الوزن نفسه ، ينظم شعرًا يسترجع من خلاله أمجاد الماضي ، مؤكدًا عروبة وطنه ، واتصال ماضيه بحاضره [٧١] :

ونحن العادلون إذا حكمنا سلو التاريخ عنا والكتابا

ونحـــن الصـــادقون إذا نطقنـــا ألفنا الصـــدق طبعًـــا لا اكتســـابا

ومن الشخصيات الغنية بالدلالات وتعدد الأبعاد في التراث الأدبي العـــربي شخصية المتنبي ، الذي حاول الشاعر أن يجعل منه معادلاً موضـــوعيًا يـــوازي في تجربته وآلامه تجربته هو وآلامه ، فكلاهما حارب من أجل قضـــية وإن اختلفـــت أهدافهما ، وكلاهما حاول أن يعري القوى الضعيفة المهزومة التي تخفق في صـــنع أمجاد حقيقية بكفاحها وصمودها وترضى بالخنوع والاستسلام ، يقـــول مفـــدي مبرزًا وجهه اللاهي غير المبالي أمام قضية وطنه ، وهو وجه لا يأتي بمعـــزل عـــن المعاناة [٧٢] :

سيان عنـــدي مفتـــوح ومنغلـــق يا سجن بابك أم شدت بـــه الحلـــق

أنام ملء عيوني غبطـــة ورضـــى على صياصـــيك لا هـــم ولا قلـــق

فالأمور متساوية في عينيه ، ولعل مرجع ذلك بأس شديد يطغى على روحه المعذبة القلقة ، والقلق ذاته عاشه المتنبي ، فعاد إلى روحه يطمئنها ، ويعلن للعالم أنه ينام قرير العين ، هادئ البال ، لا يعبأ بشيء ، في حين العالم من حولـــه يعـــيش صراعًا داميًا ، يقول [٧٣] :

أنام ملء جفوني عـــن شـــواردها ويسهر الخلـــق جراهـــا ويختصـــم

ومثله قاد أبو فراس الحمداني إحساسه بقضيته ومجابهة ذلك الشعور بعـــدم المبالاة إلى إحساس آخر ، إحساس بالذات ومعرفة أن العدل والحق لا بد أن ينتصر ، وأن صوته الناصع لا بد أن يُعلن أمام الملأ ، يقول [٧٤] :

سيذكرني قومي إذ جـــد جـــدهم وفي الليلة الظلماء يفتقـــد البـــدر

وعلى الوتر ذاته يعزف مفدي زكريا محورًا نصه ليتفق مع رؤياه ، يقول[٧٥]:

وإن جفاني ذوو القربى فلا عجـــب أن النبـــوة في أوطانهـــا خـــرق

سيذكرون إذا الليل الرهيب سجى وجلجل الخطب أني في الدجى فلق

ويغترف مفدي زكريا من ينبوع أبي تمام في قصيدته التي مدح بها المعتصم بعد فتح عمورية ، مقابلاً بين الماضي والحاضر ، الماضي الذي يمثله المعتصم وشاعره أبو تمام ، وما تحقق فيه من انتصارات ، والحاضر الذي يمثله ثوار الجزائر وما يطمحون إليه من حرية ونصر . يقول أبو تمام في افتتاح قصيدته [٧٦] :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب

وعلى المنوال ذاته لفظًا ومعنى يدير مفدي زكريا قصيدته (وتعطلت لغة الكلام) يقول [٧٧] :

السيف أصدق لهجة من أحرف كتبت فكان بيانها الإبهام

والنار أصدق حجة فاكتب بها ما شئت تصعق عندها الأحلام

إن الصحائف للصفائح أمرها والحبر حرب والكلام كلام

ولعل نظرة متأملة لأبيات مفدي زكريا ترينا أن الشاعر يحاول أن يوصل رسالة مفادها أن بالفعل لا بالقول تتحرر الأوطان ، كما كان مع المعتصم حين استنهض الهمم ، وشحذ السيوف ، وحرر عمورية بالفعل لا بالكلام .

وهو في دلالة عميقة على تعلقه بالتراث الأدبي العربي يهنئ ملك المغرب باستقلال بلاده مستمدًا معنى أبياته من بيت شهير للشاعر الجاهلي أبو أذينة حين قال يعزي الأسود بن المنذر بقتل آل غسان [٧٨] :

لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها إن كنت شهمًا فأتبع رأسها الذنبا

وعلى نفس المعنى يقول مفدي [٧٩] :

وفي ذنب الأفعى تذكرت قصة أضاع بها فردوسنا رأس ثعبان

فاتبعت بالأذناب رأسًا مهشمًا فولى فرنسي وأدبر أسباني

والشاعر يأمل من خلال هذا الطرح أن يضرم في نفوس الجزائريين الرغبة في النضال الذي لا نهاية له إلا الاستقلال ، وغدٍ أكثر إشراقًا وحرية وعدلاً .

وهو لنفس الغاية يوظف بيت أبي البقاء الرندي الذي قاله في رثاء الأندلس(٨٠):

هي الأمور كما شاهدتها دول من سرَّه زمن ساءته أزمان

ليخدم غاية قصد إليها وهي أن الزمن يدور ولا بد للمهزوم أن ينتصر ، لذا لترع الأمل في نفوسنا ولننتظر الفرج يتبعه النصر ، يقول (٨١) :

والليالي مثل الحظوظ سجال إن أساءت ألم تسر مرارًا ؟

وهو ما يفتأ يردد في بعض قصائده أسماء لشعراء العرب القدامى في محاولة لتعريف الإنسان الجزائري بهم لتأصيل هويته الثقافية والأدبية ، خاصة وأن كل شاعر يحمل دلالة معينة ، ورمزًا يرتبط به في الموروث الأدبي العربي ، لذا يذكر البحتري الذي مثل الشعر العباسي في أزهى أوقاته ، فكان يمتاز بصفاء اللغة ، وارتباط بالنص الشعري في صورته الأولى ، يقول مفدي (٨٢) :

وبحتريًا طوى الإعصاء منتقلاً يردد الحفل في آذان قحطانا

وهو أيضًا لتأصيل ملكته الشعرية يقول أن شعره ينبع من روحه وحسه ووجدانه ، فهو ليس مثل غيره ممن هجر الوزن والقافية وابتعد عن القصيدة الموزونة، فلا يربطهم بالشعر رحم ، ولا ساروا على نهج من سبقهم من فرسان الشعر مثل حسان بن ثابت وكعب بن مالك ، يقول مفدي (٨٣) :

وما ذاك إلا أن شعري من دمي يفجره وعيي وحسي ووجداني

وشعرهم بدع من الخلق مشكل ولا رحم فيه لكعب وحسان

واختيار مفدي لشاعري الدعوة الإسلامية له دلالة قوية يرمي الشاعر من خلالها إلى توظيف تأثير صحابيين وشاعرين في الوقت نفسه على المتلقي ، معولاً على المنزلة التي يحتلها الصحابي أولاً ومن ثم الشاعر .

أما شعراء العصر الحديث ، فكان لأحمد شوقي تأثيره القوي وحضوره المتميز في شعر مفدي زكريا ، معتمدًا على دوره الواضح في إحياء الشعر العربي مبنى ومعنى ، لذا نراه في بيته الأخير من قصيدته (حروفها حمراء) يقول [٨٤] :

اعتراف فدولة . . فسلام فكلام . . فموعد . . فجلاء

متأثرًا بقول شوقي [٨٥] :

نظرة . . فابتسامة . . فسلام فكلام . . فموعد . . فلقاء

والشاعر وظّف بيت أحمد شوقي لخدمة فكرته التي أرادها ، وهي أن هوية الجزائر العربية لن تتحقق إلا باعتراف وسيادة واستقلال .

وفي قصيدة تشيع فيها أصداء العاطفة الدينية ممتزجة في نفسه بالعاطفة الوطنية ، يقول [٨٦] :

دعا التاريخ ليلك فاستجابا نفمبر هل وفيت لنا النصابا

وقد نظمها الشاعر على منوال قصيدة شوقي في المديح النبوي التي مطلعها[٨٧]:

سلو قلبي غداه سلا وثابا لعل على الجمال له عتابا

ويبدو أيضًا تأثر مفدي زكريا بشاعر النيل حافظ إبراهيم واستلهامه لتراثه الشعري من أجل ترسيخ الهوية الثقافية الجزائرية التي تتعرض للتغريب ، ولعل سبب هذا التأثر هو الشعور الوطني الجامع بينهما حتى نراه يستعير أحيانًا الألفاظ نفسها التي بدأ بها حافظ بعض أبياته ، كما في قصيدته مصر تتحدث عن نفسها يقول حافظ [٨٨] :

أمن العدل أنهم يطلقون الأسد منهم وأن تقيد أسدي

أمن العدل أنهم يردون الماء صفوًا وأن يكدر وردي

ويقول مفدي زكريا [٨٩] :

أمن العدل صاحب الدار يشقى ودخيل بها يعيش سعيدًا

أمن العدل صاحب الدار يعـــرى وغريـــب يحتـــل قصـــرًا مشـــيدًا

ومن المصادر الأدبية الأخرى التي لجأ إليها مفدي زكريا مدللاً على ثقافـــة عربية أصيلة الأمثال والحكم والحكايا الأدبية ، إذ استحضر بعضًا منـــها إلى نصـــه الأصلي لوظيفة فنية أو فكرية منسجمة مع السياق ، خاصة إذا عرفنا أن الأمثـــال والحكم تبنى من ألفاظ وعبارات ذات مغزى وهدف ، وهي تمتلك قدرة تعبيريـــة فائقة ولها تأثير كبير في حياة الناس تبعًا لمضامينها النفسية منها والفكرية ، ويعـــود استخدام الأدباء لها لكونها تحمل رسائل معينة مباشرة وغير مباشرة أحيانًا .

لذا لجأ إليها مفدي زكريا حتى يستفيد من ذلك التأثير ، خاصة وأنها تخدمه في جعل خطابه الشعري موجهًا إلى أكبر قطاع ممكن من الجماهير الخاصة والعامة ، فنجح في توظيفها توظيفًا يتناسب والتجربة التي يعبر عنها ، وهذه التجربة كـــان هدفها – كما أشرت سابقًا – تأصيل الهوية الجزائرية بكل مقوماتها.

ومن الأمثال التي استخدمها مفدي زكريا محرفًا في لفظها (العين بـــالعين ، والسن بالسن ، والبادئ أظلم) [٩٠] ، ووظفه لخدمة تجربته التي ترفض الاستعمار، يقول [٩١] :

الشـــر بالشـــر والأيـــام تجربـــة من سره الدهر حينًا ســـاءه حينـــا

وهو أيضًا يورد في شعره مفردات ذات صلة بالحكايا التراثية القديمة ، مدللاً على ثقافته ، وفي الوقت ذاته محاولاً ربط الجزائريين بها حتى تترسخ في ذواتهـــم ، يقول متحدثًا عن وادي عبقر وهو وادي للجن يعيش به ، يقال إن أي مبدع مـــن الشعراء كان يأخذ أعماله منه ، يقول مفدي [٩٢] :

وعبقرًا يخرق الأجـــواء منطلقًـــا يلقي الرسالات من أصداء فصحانا

وهو أيضًا يستخدم لفظة (المارد) التي وردت في القصص التراثي خاصـــة ألف ليلة وليلة ، وكانت تقوم بخوارق الأمور ليوظفها لخدمة تجربته الأدبية وصراعه لتأصيل الانتماء الجزائري يقول [٩٣] :

اصـــدع رفيعًـــا أيهـــا المـــارد وأصـــعد ســـريعًا أيهـــا الصـــاعد

وحطم الأغـــلال واقـــذف بهـــا إلى لظـــى يصـــهر بهـــا الجاحـــد

ففي صورة جميلة يجعل من المارد معادلاً موضوعيًا للشعب الجزائري الـــذي يأمل منه أن يتحرر من قيده ويصعد قاذفًا بكل ما يكبله إلى الحرية المنشودة .

استلهام التراث التاريخي والاجتماعي :

ولقد كان استلهام التراث للحفاظ على الهوية التاريخية والاجتماعية إحدى الغايات التي هدف لها مفدي زكريا حين وظف التراث بحيوية بالغة ، محـــاولاً أن يحمي هوية مجتمعه الجزائري من التغريب واستلاب الشخصية التي ســـعى إليهـــا المستعمر الفرنسي بكل قدرته ، والهوية الاجتماعية تعني انصهار الأمة في وحـــدة اجتماعية برغم تعدد أصولها ، يعينها في ذلك التاريخ المشـــترك الـــذي وحـــدهم وجمعهم حول مصالح مشتركة ، وهذا الانصهار يحوي مقومات جامعة على رأسها الأعراف الاجتماعية والتقاليد الخلقية التي تتوارثها الأجيال اللاحقة ، وتكتسبها من الأجيال السابقة ، وحاول المستعمر محوها وإحلال قيم وأخلاق لا تمت للعروبـــة بشيء .

ويؤكد ذلك رأي أحد محرري الصحف الجزائريـــة الـــذي كتـــب أثنـــاء الاستعمار ، مشددًا على تتمسك الجزائريين بهويتهم ورفضهم الانسلاخ عنـــها ، يقول : « نعم نحن أنصار تطور تقليدي ، نتمسك بطريقـــة في العـــيش ، ونريـــد الحفاظ على عاداتنا وتقاليدنا وتحسينها في آن معًا ، ثم لم قد نطلب اندماجًا كاملاً ونبحث عن ذوبان ما ؟ فهل نخجل من عرقنا ؟ » [٩٤] ، ومن أجل ذلك فإننا نرى مفدي زكريا يوظف التراث الاجتماعي والتاريخي بما يحوي من قصص شـــعبية ، وأمثال وحكم تحض على مكارم الأخلاق وحميد الصفات ، في محاولـــة للحفـــاظ عليها ، كما ينوع في استخدام الشخصيات التاريخية والاجتماعية التي تأصل هـــذه القيم وترسخها ، وينوع أيضًا في أساليب الاستلهام ، فمن تضمين واقتباس وإشارة وغيرها .

ولعل أبرز من يطالعنا في الحث على قيمة الجهاد أبينا آدم وأُمّنا حـــواء ، إذ حاول مفدي أن يعتمد على قداسة هاتين الشخصيتين لتعزيز قيمة الجهـــاد لـــدى الجزائريين ، وبالتالي يتحقق له ما أراده من تأصيل للهوية الوطنية لديهم ، يقـــول [٩٥] :

شاركت في الجهـــاد آدم حـــواه ومـــــدت معاصـــــمًا وزنـــــودا

وفي ديوانه اللهب المقدس يعطي أيضًا الرموز التاريخية العربية والعالمية مساحة مهمة في شعره ، إذ مثلت بالنسبة له رموزًا تاريخية لها تراكمات وإضافات صنعت هويات الشعوب وأصلتها ، فأراد أن يوظفها بكل ثقلها ، وما تحمله من شـــحنة حضارية ، في دلالة على الاعتزاز بالانتماء لهذه الرموز ، ورغبة منه في تعزيز الرغبة في السير على خطاها .

ووظّف مفدي زكريا بعضًا من أهم الشخصيات التاريخية العربية ، مســـتندًا على دلالتها المتوارثة في عقل المتلقي العربي ، وبناءً عليه يكون لكل شخصية دورها المغاير للأخرى في صنع الهوية الوطنية وتأصيلها ، لكنها تتفق في الخطوط العامة التي تدعو للجهاد ، وترفض الظلم والخنوع للعدو ، وتنشد الحرية والرفعة ، ولعل أهم شخصية تاريخية عربية وظفت لدى الشعراء ، ومنهم شاعرنا ، شخصـــية صـــلاح الدين الأيوبي الذي يمثل الحضور التاريخي العربي القابل للتجدد متى ما وقع الظلـــم واستعبد البشر ، واحتلت الأرض ؛ لأنه دلالة البطولة العريقة في زمننا الذي يعيش واقعًا متناقضًا بين ماضٍ مجيد ، وحاضر تعيس ، يقول[٩٦]:

يا فرنسا امطري حديـــدًا ونـــارًا واملئي الأرض والســـماء جنـــودا

سوف لا يعدم الهلال صلاح الدين فاستصـــــرخي الصـــليب الحقـــودا

فهو وإن أمطرهم فرنسا بويلاتها إلا أنهم ينتظرون صلاح دين آخر ، ينقـــذ أمة الهلال من غاصبها .

أما الخليفة المعتصم فرمز لانتصار الحق الإنساني ، وتلبية نداء المظلوم ، لـــذا جعل مفدي زكريا من أسلوب الندبة (وامعتصماه) صرخة تنطلق من فـــم كـــل جزائري مظلوم [٩٧] :

ظلموني

واستباحوا الحرما

صحت : وامعتصما

لطموني

لم يراعُ الكرما

ومن القواد الذين مثلوا وجهًا مضيئًا في تاريخنا بما حققوه من انتصارات وفتوح يطالعنا في شعر مفدي سيف الله المسلول خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص اللذان رأى فيهما رمزًا للشجاعة والبطولة ، يقول [٩٨] :

وجندت من خالد بن الوليد وسعد بن وقاص أبطاليه

ومن الشخصيات التاريخية التي لجأ لها مفدي زكريا تطالعنا شخصيات تراثية مستمدة من تراث الشعوب الأخرى ، وقد أحسن الشاعر في توظيفها لخدمة فكرته ، والاستفادة من قدرات الشخصية القوية في ترسيخ الهوية الجزائرية الوطنية وتأصيلها في نفوس الجزائريين ، ولكن شاب استخدامه أن هذه الشخصيات قد تكون بعضها غريبة على وجدان المتلقي العربي ، فلا تستطيع أن تقوم بأي دور ؛ لأنها لا تمتلك أي دلالة عنده ، ولعل أبرز الشخصيات التاريخية التي تناولها شخصية القائد والفاتح العظيم الاسكندر المقدوني الذي يرمز للقوة والشجاعة ، يقول مفدي مخاطبًا لبنان [٩٩] :

أرو لنا يا أرز ما عشته من مجد هذا الوطن الطالع

جرحت اسكندر في قرنه وغصت بالمستعمر الطامع

فهو يوصل رسالة رمزية لشعبه الجزائري المستعمر أن لا قوة أكبر من الحق ، وأن الظلام مهما طال لا بد أن يعقبه نور ، فالجزائر بإذن الله سائرة على درب لبنان الذي قهر الاسكندر في الماضي ، ويقهر المستعمر الآن .

ويستخدم الشاعر قيصر ملك الروم وكسرى ملك الفرس اللذين يمثلان شخصية الحاكم المستبد الطاغي للدلالة على أن الصمود والمقاومة قادرتان على تحدي الظلم ، والوقوف أمام الظالم ، وهو بذلك ينشد التأثير على الشعب الجزائري المستعمر [١٠٠] :

إذا ما الضعاف الصامدون تنمروا فلا قيصر في الأرض يبقى ولا

ومن الشخصيات التراثية التي استلهم الشاعر تاريخها الثوري وسعيها لتحرير بلادها ، شخصيتا غاندي محرر الهند ، وهوشمين محرر الهند الصينية واللذان قدر لثورتيهما أن تنجحا ، وتنتصر قيمهما ومبادئهما الراسخة ، يقول [١٠١] :

تقمص غاندي في عروق شبابنا وعفنا رغيف الذل من يد جوعان

ويقول [١٠٢] :

عطلي سنة الإلــه كمــا عطلــت مـــن قبـــل هـــوشمين المريـــدا

وبالإضافة إلى القيم والمبادئ التي أراد غرسها مفدي زكريا مستندًا على دلالة الشخصيات التاريخية ، نراه ينوع في استخدام الشخصيات ما بين رسل وصحابة وقادة وأدباء لغرس مزيدًا من تلك المبادئ والقيم والأخلاق الفاضلة ، في محاولة منه لتأصيل هوية مجتمعه الذي يتعرض لمحاولة دائمة لتغريبه من قبل المستعمر، وهذه المحاولة تصب في نهاية الأمر لهدفه الأسمى استقلال الجزائر ، فهو لترسيخ الأخلاق الفاضلة يوظف شخوص الأنبياء ؛ لما لها من قدسية عالية عند المتلقي ، يقول مشددًا على قيم الاحترام والتآخي والإخلاص حاثًا على العمل الدؤوب[١٠٣]:

وعن أجـدادنا الأشـراف إنـا ورثنـا النبـل والشـرف اللبابـا

كـرام للضـيوف إذا اسـتقاموا بسـطنا في وجـوههم الرحابـا

ونحتـرم الكنيسـة في حمانـا ونحتـرم الصـوامع والقبابـا

وكـان محمـدًا نسـبًا لعيسـى وكـان الحـق بينـهما انتسـابا

وموسـى كـان يـأمر بالتـآخي وحـذر قومـه مكـرًا وعابـا

فقـل للنـازلين بهـا أقيمـوا كرامًا واعملـوا تجـدوا الثـواب

وهو أيضًا يؤمن بحق الشعوب الضعيفة في العيش الكريم ، لذا ينتخب شخصية أبي ذر الغفاري ت مشيرًا إلى موقفه الداعي لتطبيق اشتراكية عربية تعاونية [١٠٤] ، وهذا الموقف يتناغم مع رؤية الشاعر الذي عايش واقعًا غارقًا في البؤس والظلم الاجتماعي ، فطفق يحاربه بكلماته لتكون رأيًا عامًا يقف أمام الاستبداد والظلم ، يقول :

لله در أبي ذر وثورتـه فما لمـاركس عنـه اليـوم ألهانـا

وهو يوظف لفظة الرياء التي وردت في التراث الإسلامي مدللاً على زيف وعود الأمم المتحدة ، فكأن مطامعهم تظهر بشكل آخر مخفية ما بداخلها ، يقول[١٠٥] :

مـــا للطـــامع لا تنفـــك لابســـة ثوب الرياء على جثمانهـــا القـــذر

فالشاعر هنا ينفي الصدق المفقود ، ويأمل أن يأتي يومًا لا رياء فيـــه حـــتى تتحقق العزة للجزائر المستعمرة .

كما أنه يرفض التقسيم الطبقي القديم للمجتمعات العربية الـــذي يـــرى أن البشر قسمان : سادة وعبيد ، فهو لا يرضى لنفسه ولا لشعبه أن يكونـــوا عبيـــدًا تحت أقدام فرنسا ، يقول [١٠٦] :

لـــيس في الأرض ســـادة وعبيـــد كيف نرضى بـــأن نعـــيش عبيـــدًا

* * * *

الخاتمة

وبعد كل ما تقدم يمكننا القول : إن هذه الدراسة كشـــفت عـــن وعـــي الشاعر مفدي زكريا بالدور المهم الذي يلعبه أي تراث للحفـــاظ علـــى هويـــة الشعوب ، والدفاع عن تاريخها ، لذا لجأ إلى التراث العربي والإسلامي مســـتلهمًا منه ما يسهم في الحفاظ على الهوية الجزائية بعد أن رأى الخطر الذي يتهددها بالمحو والاقتلاع ، وقد لجأ في استلهامه إلى عدة طرق هي :

١- استلهام التراث الديني والإسلامي ، والذي كشف عن غيرة الشـــاعر على دينه وعلى كل ما يمس إسلام الجزائريين ، وكشف أيضًا عـــن ثقافة إسلامية متنوعة المصادر وحس ديني عالي عند الشاعر وظفـــه لخدمة غرضه .

٢- استلهام التراث الأدبي والثقافي وفيه حاول الشاعر ربط الجزائـــريين بلغتهم وتراثهم الشعري والنثري القديم الذي يمثـــل جـــذورهم ، في محاولة منه لتأصيل الانتماء عندهم ، ورفض الاندماج الثقـــافي مـــع المستعمر ، وقد كشفت تلك المحاولة عن اطلاع واسع من الشـــاعر على الثقافة العربية في مصادرها الأصيلة .

٣- استلهام التراث التاريخي والاجتماعي ، وفيه منح الشاعر نفسه أولاً ، والجزائريين ثانيًا ، أملاً متجددًا يلوح في الأفق باستقلال الجزائر عبر شخصيات حققت المجد لأوطانها .

وبعد ، فإني أضع بين يدي القارئ الكريم هذه الدراسة المتواضـــعة ، فـــإن أصبت فذاك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وإن أخطأت فما أنـــا إلا بشـــر يصـــيب ويخطئ.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * * *

المصادر والمراجع

١- آثار الإمام عبد الحميد بن باديس ، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية ، الجزائر ، ط ١ ، ١٩٨٥م .

٢- استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، علي عشري زايد ، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، طرابلس ، ط ١ ، ١٩٧٨م .

٣- الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر ، د . عبد القادر جعلول ، ترجمة : سليم متظور ، دار الحداثة للطباعة والنشر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٤م .

٤- أمراء الشعر الأندلسي ، د . عيسى خليل محسن ، دار جرير ، عمان ، ط ١ ، ٢٠٠٧م .

٥- تأملات في إلياذة الجزائر ، لمفدي زكريا بلحيا الطاهر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ط ١ ، ١٩٨٩م .

٦- التراث والتجديد ، حسن حنفي ، دار التنوير للنشر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨١م.

٧- التراث والحداثة ، محمد عابد الجابري ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩١م .

٨- التراث والهوية ، عبد السلام بن عبد العالي ، دار توبقال للنشر ، المغرب ، ط ١ ، ١٩٨٧م .

٩- التناص في النقد العربي الحديث ، معتصم سالم الشمايلة ، رسالة ماجستير ، جامعة مؤتة ، الأردن ، ١٩٩٩م .

١٠- التناص نظريًا وتطبيقًا ، أحمد زعبي ، مؤسسة عمرية ، عمان ، ط ٢ ، ١٩٨٩م .

١١- الحماسة البصرية ، صدر الدين علي بن أبي الفرج البصري ، تحقيق وشرح : عادل سليمان جمال ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٧٩م .

١٢- ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرين ، ط الحلبي الأخيرة ، ١٩٧١م.

١٣- ديوان أبي فراس الحمداني ، شرح : خليل الدويهي ، دار الكتاب العربي ، ط ١ ، ١٩٩١م .

١٤- ديوان حافظ إبراهيم ، طبعه وصححه وشرحه : أحمد أمين ، أحمد ، الزين ، إبراهيم الأبياري ، الناشر : محمد أمين دمج ، بيروت ، ١٩٦٩م.

١٥- شرح القصائد العشر ، صنعه : الخطيب التبريزي ، حققه : محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٨٤م .

١٦- شرح ديوان أبي تمام ، قدم له ووضع هوامشه : راجي الأسمر ، دار الكتاب العربي ، (ب ت) .

١٧- الشعر الجزائري ، صالح خرفي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائري ، (ب . ط) ، ١٩٧٠م .

١٨- شعر مفدي زكريا دراسة وتقويم ، حواس بري ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط ١ ، ١٩٩٤م .

١٩- الشوقيات ، أحمد شوقي ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، (د . ت).
٢٠- صحيح البخاري ، تحقيق : د . مصطفى الديب ، دار ابن كثير ، بيروت، ط ٣ ، ١٤٠٧هـ .
٢١- علم التناص المقارن ، عز الدين المناصرة ، منشورات جامعة فلادلفيا ، مجدلاوي للنشر ، عمان ، ٢٠٠٥م.
٢٢- كائنات مملكة الليل ، أحمد عبد المعطي حجازي ، منشورات أخبار اليوم ، القاهرة ، ١٩٩٨م .
٢٣- لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٩٤م .
٢٤- اللهب المقدس ، مفدي زكريا ، منشورات وزارة التعليم ، الجزائر ، ط ٢ ، ١٩٧٣م .
٢٥- المستدرك على الصحيحين للحاكم ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١١هـ .
٢٦- مستقبل الهوية المغربية أمام التحديات المعاصرة ، أبو بكر القادري ، ندوة لجنة القيم الروحية والفكرية ، تطوان ، المغرب ، ط ١ ، ١٩٩٧م .
٢٧- مستقبل الهوية المغربية أمام التحديات المعاصرة ، د . محمد وقيدي ، طبع لجنة القيم الروحية والفكرية ، تطوان ، المغرب ، ١٩٩٧م .
٢٨- معجم المصطلحات الأدبية في اللغة والأدب ، مجدي وهبة وكامل المهندس ، مكتبة لبنان ، بيروت ، (ب . ط) ، ١٩٩٣م .
٢٩- مفدي زكريا النضال والثورة ، محمد ناصر ، جمعية التراث ، غرداية ، الجزائر ، ط ٢ ، ١٩٨٩م .
٣٠- ندوة الهوية والتراث ، د . محمد عمارة ، المركز القومي للبحوث الاجتماعية ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٩٨م.
٣١- وعي الهوية العربية في الفكر التنوسي الحديث ، د . عفيف البوني ، منشورات العالم العربي ، باريس ، ١٩٨١م .

* * * *

الهوامش والإحالات

(١) كلمة (تراث) من مادة (و ر ث) اتصلت اتصالاً وثيقًا بكلمات (الإرث) (الوِرث) (الميراث) ، وهي مصدر تدل على ما يرث الإنسان من مال أو حسب ، ويرتبط الورث والميراث بالمال في اللغة في حين يرتبط الإرث بالحسب ، وأما كلمة تراث فكانت قليلة الاستعمال عند أهل اللغة ، وكان أصلها الاشتقاقي من ورث ، فقلبت الواو تاء ؛ لثقل الضمة على الواو . انظر : معجم المصطلحات الأدبية في اللغة والأدب ، مجدي وهبة وكامل المهندس ص (٩٣) ، مكتبة لبنان ، بيروت ، (ب . ط) ، ١٩٩٣م . ولسان العرب ، ابن منظور ، مادة : (ورث) ، دار صادر ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٩٤م .

(٢) انظر : التراث والحداثة ، محمد عابد الجابري ص (٢٢) ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩١م .

(٣) انظر : التراث والتجديد ، حسن حنفي ص (١١) ، دار التنوير للنشر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨١م .

(٤) مستقبل الهوية المغربية أمام التحديات المعاصرة ، أبو بكر القادري ص (١١٣) ، ندوة لجنة القيم الروحية والفكرية ، تطوان ، المغرب ، ط ١ ، ١٩٩٧م .

(٥) كما عرف باحث آخر الهوية بأنها : القسمات الثابتة من العناصر التراثية . انظر : ندوة الهوية والتراث ، د . محمد عمارة ص (٢٠) ، المركز القومي للبحوث الاجتماعية ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٩٨م .
وهناك من يرى أن الهوية تعني المطابقة حقًا غير أن المطابقة فيها لا تكون مع شيء آخر ، بل تكون أساسًا بين الشيء وبين ذاته ، فهوية الشيء هي ما يكون به مطابقًا لذاته وما يستمر به كذلك في وجوده ، فهوية الشيء هي ما يكون به الشيء هو ذاته متمايزًا عن غيره حتى وإن ماثله في بعض الخصائص أو اشترك معه فيها .
وقال عنها أيضًا : إنها نسق من الموروثات الحضارية من الأسئلة والأجوبة المتعلقة بالكون والسلوك الإنساني . انظر : مستقبل الهوية المغربية أمام التحديات المعاصرة ، د . محمد وقيدي ص (١٣٠) ، طبع لجنة القيم الروحية والفكرية ، تطوان ، المغرب ، ١٩٩٧م .

(٦) التراث والهوية ، عبد السلام بن عبد العالي ص (٥٢) ، دار توبقال للنشر ، المغرب ، ط ١ ، ١٩٨٧م .

(٧) الشعر الجزائري ، صالح خرفي ص (١٨٧ – ٢١١) ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، (ب . ط) ، ١٩٧٠م .

(٨) الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر ، د . عبد القادر جعلول ، ترجمة : سليم متظور ص (٧٢) ، دار الحداثة للطباعة والنشر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٤م .

(٩) انظر : تأملات في إليادة الجزائر ، لمفدي زكريا بلحيا الطاهر (١٢/٩) ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ط ١ ، ١٩٨٩م ، وشعر مفدي زكريا دراسة وتقويم ، حواس بري ص (٥٩ – ٦٧) ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط ١ ، ١٩٩٤م .

(١٠) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس ص (٣٢٨ ، ٣٢٩) ، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية ، الجزائر ، ط ١ ، ١٩٨٥م .

(١١) التناص نظريًا وتطبيقًا ، أحمد زعبي ص (٥٧) ، مؤسسة عمرية ، عمان ، ط ٢ ، ١٩٨٩م .

(١٢) انظر : علم التناص المقارن ، عز الدين المناصرة ص (٧٢ – ٨٧) ، منشورات جامعة فلادلفيا ، مجدلاوي للنشر ، عمان ، ٢٠٠٥م ، وكائنات مملكة الليل ، أحمد عبد المعطي حجازي ص (٢٣ ، ٢٤) ، منشورات أخبار اليوم ، القاهرة، ١٩٩٨م .

(١٣) التناص في النقد العربي الحديث ، معتصم سالم الشمايلة ص (٧٤) ، رسالة ماجستير ، جامعة مؤتة ، الأردن ، ١٩٩٩م .

(١٤) انظر : استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، علي عشري زايد ص (٦٤ – ٨٠) ، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، طرابلس ، ط ١ ، ١٩٧٨م .

(١٥) مفدي زكريا النضال والثورة ، محمد ناصر ص (١١٠) ، جمعية التراث ، غرداية ، الجزائر ، ط ٢ ، ١٩٨٩م .

(١٦) اللهب المقدس ، مفدي زكريا ص (٢٧٣) ، منشورات وزارة التعليم ، الجزائر ، ط ٢ ، ١٩٧٣م .

(١٧) المرجع السابق ص (١٣٤) .

(١٨) المرجع السابق ص (١٥٦ ، ١٥٧) .

(١٩) اللهب المقدس ص (١٩٨) .

(٢٠) المرجع السابق ص (١٠) .

(٢١) المرجع السابق ص (٣٠) .

(٢٢) سورة العلق ، آية رقم (١) .

(٢٣) سورة الحجر ، آية رقم (٩٤) .

(٢٤) اللهب المقدس ص (٥٧) .

(٢٥) المرجع السابق ص (٢٧٤) .

(٢٦) سورة القيامة ، آية رقم (٣٤ – ٣٥) .

(٢٧) اللهب المقدس ص (٣٠٠) .

(٢٨) سورة يس ، آية رقم (٨٢) .

(٢٩) سورة الشرح ، آية رقم (٥ – ٦) .

(٣٠) اللهب المقدس ص (١٥٣) .

(٣١) صحيح البخاري ، تحقيق : د . مصطفى الديب ، دار ابن كثير ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٧هـ ، (٢٧١/٥) حديث رقم (٥٧٨٢) .

(٣٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١١هـ ، (٣٣٠/١) حديث رقم (٧٦٥) .
(٣٣) اللهب المقدس ص (٣٤٩) .
(٣٤) مفدي زكريا شاعر النضال والثورة ص (١٢١) .
(٣٥) اللهب المقدس ص (٣٠٠ ، ٣٠١) .
(٣٦) اللهب المقدس ص (٣٠٦) .
(٣٧) انظر : استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ص (١٠٤) .
(٣٨) اللهب المقدس ص (٣٠٦) .
(٣٩) المرجع السابق ص (٩ ، ١٠) .
(٤٠) اللهب المقدس ص (٣٧) .
(٤١) انظر : استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ص (٩٩) .
(٤٢) اللهب المقدس ص (٣٠٦) .
(٤٣) المرجع السابق ص (١٠٦) .
(٤٤) اللهب المقدس ص (٣٦) .
(٤٥) سورة يوسف ، آية رقم (٥٦) .
(٤٦) اللهب المقدس ص (١١٤) .
(٤٧) إشارة إلى الآية الكريمة : { فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ } [سورة سبأ : ١٤] .
(٤٨) اللهب المقدس ص (٣٠٦) .
(٤٩) المنسأة : عصاه التي كان يتوكأ عليها .
(٥٠) هو الشهيد أحمد زبانا الذي دشن مفصلة سجن بربروس ليكون أول شهيد وذلك يوم ١٩٥٥/٧/١٨م .
(٥١) اللهب المقدس ص (١١) .
(٥٢) اللهب المقدس ص (٦٦) .
(٥٣) خلده : رمز الخلود ويقصد به البترول .
(٥٤) اللهب المقدس ص (٢٠) .
(٥٥) اللهب المقدس ص (١٠٥) .
(٥٦) المرجع السابق ص (١١٥) .
(٥٧) اللهب المقدس ص (٣٣) .
(٥٨) المرجع السابق ص (١٨٢) .
(٥٩) المرجع السابق ص (١٠) .
(٦٠) اللهب المقدس ص (١١٩) .
(٦١) المرجع السابق ص (١١٧) .
(٦٢) المرجع السابق ص (٢٩٤) .
(٦٣) المرجع السابق ص (١١٦) .
(٦٤) وعي الهوية العربية في الفكر التنوسي الحديث ، د . عفيف البوني ص (٧٩) ، منشورات العالم العربي ، باريس ، ١٩٨١م .
(٦٥) اللهب المقدس ص (١٢٠) .
(٦٦) اللهب المقدس ص (٦٠) .
(٦٧) المرجع السابق ص (٢٨٣) .
(٦٨) شرح القصائد العشر ، صنعه : الخطيب التبريزي ، حققه : محمد محيي الدين عبد الحميد ص (٤٢٢) ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٨٤م .
(٦٩) ديوان اللهب المقدس ص (١٥٦) .
(٧٠) شرح القصائد العشر ص (٤٢٧) .
(٧١) اللهب المقدس ص (٣٨) .

(٧٢) اللهب المقدس ص (٢١) .
(٧٣) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرين (٣٦٧/٣) ، ط الحلبي الأخيرة ، ١٩٧١م .
(٧٤) ديوان أبي فراس الحمداني ، شرح : خليل الدويهي ص (١٦٥) ، دار الكتاب العربي ، ط ١ ، ١٩٩١م .
(٧٥) اللهب المقدس ص (٢٩) .
(٧٦) شرح ديوان أبي تمام ، قدم له ووضع هوامشه : راجي الأسمر ص (٣٢) ، جـ (١) ، دار الكتاب العربي ، (ب ت) .
(٧٧) اللهب المقدس ص (٤٣) .
(٧٨) الحماسة البصرية ، صدر الدين علي بن أبي الفرج البصري ، تحقيق وشرح : عادل سليمان جمال (٢٧٨/١) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٧٩م .
(٧٩) اللهب المقدس ص (٣٢٥) .
(٨٠) أمراء الشعر الأندلسي ، د . عيسى خليل محسن ص (٢٩٧) ، دار جرير ، عمان ، ط ١ ، ٢٠٠٧م .
(٨١) اللهب المقدس ص (٢٢٩) .
(٨٢) اللهب المقدس ص (٢٩٢) .
(٨٣) المرجع السابق ص (٣٢١) .
(٨٤) المرجع السابق ص (٥٤) .
(٨٥) الشوقيات، أحمد شوقي (١١١/٢)، ط دار الكتب العلمية ، بيروت،(د . ت) .
(٨٦) اللهب المقدس ص (٣٠) .
(٨٧) الشوقيات (٦٣/١) .
(٨٨) ديوان حافظ إبراهيم ، طبعه وصححه وشرحه : أحمد أمين ، أحمد ، الزين ، إبراهيم الأبياري ، (٩٣/٢) ، الناشر : محمد أمين دمج ، بيروت ، ١٩٦٩م .
(٨٩) اللهب المقدس ص (١٦) .
(٩٠) قال تعالى : { وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ" } [سورة المائدة : ٤٥] .
(٩١) اللهب المقدس ص (١٥١) .
(٩٢) المرجع السابق ص (٢٩٢) .
(٩٣) اللهب المقدس ص (١٤٦) .
(٩٤) الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر ص (٧٢) .
(٩٥) اللهب المقدس ص (١٥) .
(٩٦) اللهب المقدس ص (١٨) .
(٩٧) المرجع السابق ص (١٢٦) .
(٩٨) المرجع السابق ص (٣٤٣) .
(٩٩) اللهب المقدس ص (٣٣٢) .
(١٠٠) المرجع السابق ص (٣١٢) .
(١٠١) المرجع السابق ص (٣٢٦) .
(١٠٢) اللهب المقدس ص (١٨) .
(١٠٣) المرجع السابق ص (٣٩) .
(١٠٤) أبو ذر الغفاري الصحابي ، أول من دعا لتطبيق اشتراكية عربية تعاونية في خلافة الفارق ، أما ماركس فهو (كارل ماركس) واضع الأسس الجذرية للمذهب المادي الديالكتي .
(١٠٥) اللهب المقدس ص (١٤٠) .
(١٠٦) المرجع السابق ص (١٦) .